

الباب الرابع

العرب

هى تلك الأمة القديمة التى كانت تسكن جزيرة العرب فى الطرف الغربى من آسيا . وينقسم تاريخهم ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم الى عصرين . أولهما العصر الجاهلى ، ويراد به تاريخ العرب من أول نشأتهم إلى ظهور الإسلام . وثانيهما العصر الإسلامى ، ويراد به تاريخهم بعد الإسلام فى جزيرتهم ، وكذلك فى الأقاليم التى افنتحوها وأسسوا فيها ممالكهم العظيمة . وتاريخ العرب فى العصر الجاهلى مشوبٌ باللبس والغموض . وقد تهيبته أقلام الكتّاب ، وتحاشته جهابذة المؤرخين ، وما من أحد حاول التأليف فيه من أهل التحقيق إلا رجع عنه من منتصف الطريق أو أوائله . واذ كان هذا أمر تاريخ العرب العام قبل الإسلام فلا غرابة ان كان تاريخ التريبة عندهم أشد التباساً وأعظم غموضاً . على أنا لا نعرف أحداً تصدى للتأليف فى موضوع التريبة عند العرب الجاهليين ، أو كتب فى ذلك شيئاً يقضى حاجة فى النفس أو يشفى غلة فى الفؤاد . ولذلك فإننا لا نستطيع هنا إلا أن نصور للقارئ حال التريبة فى ذلك العصر تصويراً إجمالياً يقفُّه على قليل مما تجب معرفته فى ذلك الباب .

تقسيم العرب الجاهليين

ينقسم العرب الجاهليون قسمين بدو وحضر . أما البدو فأقوام رُحَّل يقطنون بيوت الشعر ، ويعيشون من ماشيتهم ، فيتغذَّون بلحومها وألبانها ويتخذون من أضوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً ، ويسكنون السهول ، ويتوغلون فى القفار ، وينتجعون الأراضى النضرة ، ويهرعون الى مجارى المياه . وأما الحضرة فقد كانت لهم مدن عظيمة ، وكان لهم ملوك وأقيال فتحوا البلاد وأوغلوا فى الأرض واستولوا على كثير من أقطارها

تاريخ التريبة (٢١)

شرقاً وغرباً ، وكانت لهم قوانين موضوعة وشرائع مسنونة وعلوم وفنون مدونة في الكتب ومدارس ومعاهد للتربية والتعليم .

ولما كانت التربية عند أهل البوادي من العرب الجاهليين ، تختلف في نظمها وطرائقها عنها عند أهل الحضرة منهم ، رأينا أن نعالج كلا على حدة ، ولنبدأ بأولاهما .

التربية عند عرب البدو الجاهليين

أغراضها

كانت التربية عندهم ترمى الى أغراض متنوعة ، منها إعداد النشء لتحصيل ما هو ضرورى لحفظ الحياة ، فكان الغلام يتمرن على أعمال آبائه ليسلك طريقهم في كسب العيش وتحصيل اللباس واتخاذ المسكن ، وليقتدر على مدافعة الأعداء ومنازلة الوحوش . كذلك كان من أغراض التربية عندهم بث العادات الفاضلة وغرس الخلال الطاهرة التي اشتهر بها العرب منذ القدم .

نظمها وموادها

كانت الأسرة أهم وسائل التربية ، وقد تشاركها في ذلك العشيرة التي تجمع أفرادها أواصر النسب وروابط القرابة والتي تعد صورة مكبرة للأسرة ، فكان الطفل يأخذ عن أسرته أو عشيرته طرقها الخاصة في كسب القوت وتحصيل اللباس واتخاذ المسكن ، ويتعرف منها أساليب الدفاع وطرق الإغارة على الأعداء وفنون الأعمال والصناعات التي كانت لها ، وهذه الصناعات وإن لم تبلغ في بابها شأواً بعيداً كثيرة متنوعة : منها الصيد والقتل وإعداد آلات الحرب وعمل الآنية ودبغ الجلود وغزل الصوف وحياسة الملابس وتربية الماشية ، وغيرها كثير . كذلك كانت الأسرة والعشيرة أهم الوسائل في تحصيل الأخلاق الفاضلة ، فقد كان الأحداث يأخذون عن آبائهم وأبطال عشيرتهم أخلاق الشجاعة والإقدام ، ويتعلمون منهم الكرم والوفاء والمروءة والنجدة والغيرة وغيرها من الشيم الفاضلة التي اشتهر بها العرب وعرفوا بها بين الأمم .

أما العلوم والمعارف فقد كان لهم في كثير منها قدم راسخة ، فقد نبغوا في الشعر والخطابة وعلم الأنساب وعلم وصف الأرض . ووصلوا إلى غايات بعيدة في علوم النجوم والطب والأنواء ومهابة الرياح والكهانة والعيافة والقيافة والزجر والفراسة .

حَذَقَ العرب هذه العلوم والمعارف من غير أن يتلقوها في المدارس أو يقرءوها في الصحف لأنهم كانوا في جملتهم أميين لا يقرءون ولا يكتبون ؛ وإنما استفادوها بالتجارب والاستنباط والاقتباس من الأمم المجاورة ، وقد تجمعت في حوافظهم وتنوقلت في أعقابهم بالرواية والسماع .

طرقها وأساليبها

لم يكن لعرب البدو الجاهليين طرق موضوعة ولا أساليب محدودة في تربية النشء وتثقيفه . وإنما كان الأحداث يأخذون ما يصل إليهم من الآداب والأخلاق والمعارف بالنقل والمحاكاة ، أو بما يسمعون من النصائح والعظات التي يلقونها من الآباء والأمهات وذوو العقول الراجحة من الأقارب ورؤساء العشائر ، أو بما يتدبرونه في الشعر الحسن من المعاني السامية والفكر المبتكرة والأخيلة الدقيقة .

كان الحدث يخالط أبويه وذوى قرابته وأهل عشيرته جميعاً ، ويلحظ ما كان لهم من الآداب والعادات في حلهم وترحالهم ، وطعامهم وشرابهم ، وجدهم وهزلهم ، وحرهم وسلامهم ، وفي كل وجه من وجوه أعمالهم ، فينبعث إلى محاكاةهم والاقتداء بهم ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى تنتقل إليه طباعهم وتصدر عنه أعمالهم بطريق العادة .

أما العظات والنصائح التي كان الآباء والأمهات وذوو القرابة يُسَدُّونها إلى الأطفال ، فما كان أكثرها وأبلغ تأثيرها ، وما كان أنفق سوقها عند العرب الجاهليين . كانت الأم تجلس إلى ولدها فتلقئ عليه من المواعظ والنصائح ما يبصره بطريق الحياة ويحبب إليه الفضيلة . وكان الأب يجمع بنيه وينثر عليهم من عظاته ويقص عليهم من تجاربه ما يهد لهم طرق الهداية والرشاد . وكذلك كان للأخوة الراشدين والأعمام والأخوال

الناهين أعمال كثيرة من هذا النوع في تأديب الأحداث والأطفال . من ذلك أن أعرابية رأت ابنها وقد أزمع السفر، فأرادت ألا يفارقها حتى تزوده بشيء من النصائح العالية والحكم العالية، قالت :

« أى بنى ، اجلس أمتحك وصيتى وبالله توفيقك ، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك . أى بنى ، إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين . إياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقاما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهين ما اشتد من قوته . وإياك والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هزرت فاهزرك كريماً يلبس لهزتك ، ولا تهزرك للثيم فإنه صخرة لا يتفجر مأوها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه »

وأوصى أعرابي ابنه فقال : « ابذل المودة الصادقة تستفد إخواناً وتتخذ أعواناً فإن العداوة موجودة عتيدة ، والصدقة مستعيزة بعيدة . جنب كرامتك اللئام فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت شديدة لم يصبروا . »

معاهدنا

لما كانت أعمال الحياة وفنونها في ذلك العصر وعند هذا الجيل من الناس سهلة ساذجة ، كان من السهل على النشء أن يحصّلها بالحكاكة والاشتراك في الأعمال التي يقوم بها آباؤه ومن هم أكبر منه سنّاً من أهله وذوى قرابته . ولذلك لم تكن هناك حاجة إلى مدارس أو معاهد للتعليم على نحو ما هو معروف عند الأمم الراقية المتقدمة في الحضارة . على أنه لا يصح إطلاق القول في ذلك إطلاقاً ، فقد كان للعرب الجاهليين أسواق ومجالس آداب تشبه في كثير من الوجوه الأندية اللغوية والمجامع العلمية التي للأمم المتقدمة في العصور الحاضرة . أما مجالس الآداب فكانوا يعقدونها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والبحث في بعض الشؤون العامة ، وكانوا يسمونها الأندية ، ومنها نادى قریش . وأما الأسواق فقد كانت أمكنة تجتمع فيها الناس في أوقات معينة للبيع والشراء ، وكان

العرب يحضرونها بما عندهم من المآثر والمفاخر، فينشدون الشعر ويلقون الخطب ويتحاكون إلى قضاة نصبوا أنفسهم لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه . فكانت لذلك من أكبر الوسائل في شحذ الذهن وترقية الفكر وتهذيب اللغة ؛ فلا غرو أن كانت من أكبر معاهد التربية العالية عند العرب . ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ قرب الطائف ، و مَجَنَّة بالقرب من مكة ، و ذو المجاز على فرسخ من عرفة . وما أشبه هذه الأسواق بمعاهد التربية البدنية اليونانية التي تقدم ذكرها ، وهي أبنية كان اليونان يجتمعون فيها للألعاب ، ويذهب إليها فلاسفتهم وعلمائهم وأدباؤهم ، فيغتسمون فرصة اجتماعهم هناك فيتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان العرب يفعلون في عكاظ وغيرها من الأسواق .

المرأة العربية البرية في الجاهلية

كان للمرأة العربية في الجاهلية من علو المنزلة وسمو المكانة وجميل الأخلاق ونبل الصفات ما للرجل ، وفرة عقل ، وخصافة رأى ، وصفاء ذهن ، وطيب أخلاق وآداب . كانت موضع الكرامة والإجلال يأتمر الرجل بأمرها وينزل في الحادثات على حكمها . وكانت تستشار في أمر زواجها ، وتترك لها الحرية في اختيار بعلمها ، وقل أن غلبت امرأة من نساء العرب على أمرها في شأن تزويجها ، ولهم في ذلك أقوال مأثورة وأحاديث مشهورة يرجع إليها في كتب الآداب والأخبار .

أما التربية فكان حظ المرأة منها وافراً . كانت تتعلم الشعر والخطابة وكثيراً من الأعمال والفنون التي يجيدها الرجال ، وكانت فوق ذلك تتعلم تدبير المنازل ، وإعداد المطاعم ، ورعى الماشية ، وهنء الإبل ، وغزل الصوف ، والضرب على المعازف من دفوف وطبول ومزاهر . وكانت تتعلم أسو الجروح في أوقات الحروب على نحو ما يفعل نساء الإفرنج في هذه الأيام .

كانت الأم العربية تُعِدُّ بنتها لتكون زوجة صالحة ترعى حقوق زوجها ، ولتكون في المستقبل أما تحسن تربية الأطفال وتهذيبهم ، فكثيراً ما كانت الأم تختلي ببنتها ليلة زفافها فتبصرها بحقوق الأزواج ، وتسدى إليها من النصائح ما يساعدها على أن تكون خير

زوجة وخير أم . وفي كتب الأخبار من هذه الوصايا شيء كثير مستفيض .
نعم قد اشتمل تاريخ المرأة في الجاهلية على وصمتين من أكبر الوصمات ، ذلك
ما كان فاشياً بين العرب من سبي النساء وواد البنات . أما السبي فقد كان من عاداتهم فيه
أنهم إذا خرجوا لقتال عدو أعقبوا صفوفهم بنسائهم وذوات أرحامهم حملاً لأنفسهم على
الصبر والثبات ، وقد يغلبهم العدو فيخترق صفوفهم حتى يصل إلى نسائهم فيأخذهن
سبائاً ويسوقن إلى بيته ، فيحتكم فيهن ليكون ذلك إذلالاً للمغلوب وإصاقاً للعار به .
وأما الواد فقد كان من أمرهم فيه أن العربي إذا وُلِدَتْ له وليدة حَزَنَ واغتم وأصرَّ
لها الشر والسوء ، ثم تركها حتى إذا كانت سداسية حفر لها بئراً في الصحراء ، ثم قال
لأمها طيِّبِها وزَيِّنِها حتى أذهب بها إلى أحماها ، ثم أخذها وسار بها حتى إذا بلغ البئر
التي حفرها ، قال لها انظري فيها : فإذا نظرت ، دفعها من خلفها وهال عليها التراب ،
ثم قفل راجعاً يَجِلُّهُ الحزن والاكتئاب . كانوا يفعلون هذا المنكر ويأتون هذا الإثم
لمزيد غيرتهم وخوفاً من العار الذي قد يلحق بهم من أجلهن . ومنهم من كان يأتيه
خشية الإنفاق وخوف الفقر . ومما يجب التنبيه عليه هنا أن الواد لم يكن من العادات
الفاشية بين العرب ، حتى يَعُمَّ عارُه جميع هذا الجيل المعروف بالشهامة والمروءة والعزة
وكرم الأخلاق ، وإنما اختصَّت به قبائل قليلة قست قلوبها فتردَّت في غوايتها وصدَّت
عن سواء السبيل .

عرب الحضرة الجاهليون

هم أمم كثيرة مختلفة منها البائدة ومنها الباقية . وكثير منها سلطان واسع ومدنية
راقية : ملوك وآطام وقصور وقلاع وبروج ، ومدارس للتعليم والتهديب .
وليس من الحزم في مثل هذا الكتاب أن نفصل أحوال التربية عند كل أمة من
هذه الأمم ، فإن ذلك لا ينتج إلا ذكر نُظُم متشابهة ، وشئون متماثلة ؛ وإنما الأجدر
الاقتصار على ذكر حال التربية في أمة واحدة لتكون مثلاً لها عند الأمم الباقية .
ولنختار لهذا التمثيل أعظم الأمم شأنًا ، وأرسخها في المدنية قَدَمًا : تلك هي دولة العمالة
في العراق .

العمالة في العراق

كان للعمالة في خارج بلاد العرب دولتان كبيرتان ، إحداهما في العراق ، والأخرى في مصر . والأولى منهما توافق ما يسميه المؤرخون الآن (بالدولة البابلية الأولى) أو (الدولة الحورية) ، نسبة إلى (حَمُورَابي) أعظم ملوكها وصاحب الشرائع القديمة المعروفة باسمه ، فإن المحققين من المؤرخين يذهبون إلى أن هذه الدولة عربية صميمية ، وإحدى قبائل العرب البائدة أو العرب العرباء .

حكم العمالة في العراق نحو ثلاثة قرون ونصف (٢٦٤٠ - ٢٢٨١ ق . م) . وكان عدد ملوكهم أحد عشر سادسهم « حَمُورَابي » ، وهو الذي بلغت الدولة في عهده غاية مجدها ونهاية سلطاتها . فتح بابل وغزا الآشوريين حتى أدخل بلادهم في طاعته ، وسن من الشرائع والقوانين ما دل على أن هذه الدولة بلغت من الرقي والتقدم غاية ما وصلت إليها أمة من الأمم في هاتيك العصور .

نظامهم الاجتماعي

كان العمالة في العراق ثلاث طبقات : الأحرار والعبيد وطبقة بين هاتين هي طبقة الموالى ، فالمولى عندهم أرقى من العبد وأحط من الحر ، فله أن يقتني العبيد ويتزوج من الحرائر ، ولكنه أمام القضاء أحط منزلة وأقل مؤاخذه من الحر ، فإذا جنى أحد على آخر فكسر عظمه مثلاً ، عوقب الجاني بكسر عظمه إن كان المجنى عليه حرّاً ، فإن كان مولى كانت العقوبة مناً من الفضة يدفعه غرامة ، وإن كان عبداً فنصف من ليس غير .

نساؤهم

كان للنساء عند العمالة في العراق منزلة عالية ومكانة سامية . كن متمتعات بحريتهن واستقلالهن كنساء الأمم المتمدينة في هذا العصر ، وكن مساويات للرجال في الحقوق

يشاركهم في أعمال التجارة والصناعة والزراعة ، ويزاولن المهن القسامية وينخرطن في خدمة الدواوين الحكومية .

وكان الزواج وثيق العرا عندهم لا يعتد به إلا بعقد كتابي . وكان للمرأة عند زوجها نصيب كبير من الإجلال . نعم كان للرجل أن يقتني الجوارى ويتسرى ، ولكن لا يقبل منه ذلك إلا إذا كانت زوجته عقيمًا ، فهو يفعلها ابتغاء النسل ليس غير .

علومهم ومعارفهم

كانت معارف العمالة في العراق غزيرة واسعة ، وعلومهم كثيرة متنوعة ، إلا أنها كانت عملية بحتة عمدها التجارب ، ويشوبها كثير من الأباطيل والخرافات .

فمن علومهم الهندسة العملية ، دعتهم إليها البيئة التي كانوا فيها ، وذلك أن مملكتهم كانت تغطي كل ربيع بما يأتي به دجلة والفرات من الغرين الذي يُخصب الأرض ويزيد في قوة إنباتها ، فدفعهم ذلك إلى الأعمال الزراعية ، وجرهم إلى الاشتغال بالهندسة في إرواء الأرض وإعدادها للزراعة ، فعرفوا كيف يخزنون المياه ويحسنون توزيعها ، وكيف يشقون الترع ويقيمون الجسور إلى غير ذلك مما تستدعيه أعمال الفلاحة في البلاد التي تخترقها الأنهار العظيمة .

ومنها الحساب والهندسة وعلم الآلات ، فقد كانت لهم طرق خاصة راقية في العد . ولهم مقاييس للأطوال والسطوح والمكاييل والموازين متخذين قبضة اليد وحدة لكل ذلك . كذلك كان لهم باع طويل في علم النجوم ، فقد رصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ، وعرفوا السيارات وبعض الثوابت ، ورسموا الأبراج ومنازل الشمس والقمر . وحسبوا الكسوف والخسوف إلى غير ذلك مما يدل على براعتهم في هذا العلم .

أما الطب فلم يصل عندهم إلى درجة راقية ، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الأمراض رالعلل جميعًا إنما تنشأ من مس الشياطين وملابسة الجن ، ولذلك كان عمادهم في التداوي والاستشفاء على أنواع من الشعوذة والعرافة ، وصنوف مختلفة من الرقى

والعزائم . نعم قد وصلوا بالمصادفة ومن غير تعمد إلى بعض أدوية ومعالجات حقيقية نافعة كانوا يستعملونها في كثير من الأحيان .

وأما الآداب فكان لها عندهم سوق نافقة وتجارة رائجة ، وكانت عناية الناس بها شديدة . يدل ذلك على ذلك ما عثر عليه المنقبون والباحثون حديثاً في آثار المدن وفي بطون الأرض من الصحف الصلصالية التي تعد بالآلاف ، والرسائل المنقوشة على الأحجار والقراميد وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والنصوص التاريخية . وكذلك الأشعار والأناشيد والأدعية الدينية والأفاصيص والحكايات التي تبين آراءهم وعقائدهم في خلق العالم وبدء تكوينه . وقد عثر المنقبون أيضاً في أنقاض هذه المملكة القديمة على معجمات وكتب للمطالعة وأخرى في قواعد اللغة وعلى قراميد من الصلصال عليها دروس في الحساب والمهجاء ، وغير ذلك مما يدل على ما كان لهذه الأمة القديمة من العناية الفائقة بالتربية والتعليم

التربية

أغراضها

كانت التربية عند عمالقة العراق عملية محضه ، ترمى إلى تخريج النشء في المهن والصناعات المختلفة كالمهندسة والطب والبناء والنقش والتجارة وغيرها من المهن التي بها يكسب الإنسان رزقه ، ويعيش في دنياه عيشة راضية سعيدة . أما التربية الحرة التي ترمى إلى تحبيب العلم إلى النشء وترغيبهم فيه لذاته لا لفائده العملية ، فقد كانوا منصرفين عنها كل الانصراف .

نظمها ومعاييرها ومواردها

التربية هنا قسمان ابتدائية وعالية ، أما الأولى فلا يكاد المؤرخون يعرفون عن مدارسها شيئاً مذكوراً ، ولكن مما لا ريب فيه أنها كانت فاشية منتشرة في أرجاء البلاد . وقد كشف الباحثون في آثار (زيبارا) أنقاض مدرسة لتعليم الأطفال ، كان فيها تاريخ التربية (٢٢)

قرايمد عليها دروس للأحداث في الحساب والهجاء ، ووجدوا فيها معجمات وكتباً للمطالعة وقواعد اللغة . وأما التربية العالية فقد كان لها مدارس ومعاهد متصلة بالمعابد . وكانت دور الكتب فوق ذلك مورداً عذباً يرتشف منه الطامحون من طلاب العلم ورواده .

أما المواد الدراسية فهناك ما يدل على أنها كانت تشمل طائفة كبيرة من العلوم والفنون كالهندسة العملية ، والرياضة وعلم الفلك وعلم اللاهوت والعلوم الطبيعية المختلفة والطب وفن العمارة والنقش والتصوير والأدب والتاريخ .

طرقها وأساليبها

يظهر أن العالقة في العراق كانوا يعتمدون في التدريس على الحفظ والنقل . ومن طرائقهم في تعليم الخط أن المعلم يكتب بالمول نماذج على ألواح من الطين الطرى ثم يجففها ويضعها للتلاميذ فيحاطونها في ألواحهم . وقد كانت الكتابة عندهم تصويرية ذات علامات مختلفة ، كل علامة تمثل معنى من المعاني أو فكرة من الفكر . وقد عثر الباحثون على كثير من هذه الألواح أو القرايمد في آثار (بابل) . ولم تكن التربية العالية لتختلف عندهم في أساليبها وطرقها عن التربية الابتدائية ، فقد كانت طريقتهما للحفظ والنقل أيضاً . وقد كان التعليم بنوعيه إفرادياً ، فيختص المعلم كل تلميذ من تلاميذه بجزء من وقته ، وحصه من عنايته . وقد كان المعلمون في المدارس الابتدائية كثيرى العدد . إلا أن المؤرخين لا يعامون شيئاً عن حقيقتهم ، ولا يعرفون من أى طبقة هم ، أما القائمون بالتعليم العالي فقد كانوا جميعاً من طبقة القساوسة والرهبان .

العرب في العصر الإسلامي

كان العرب في جاهليتهم قبائل متدبرة متقاطعة ، ديدنهم شن الغارات ، وإدراك الثارات . فلما جاء الإسلام جمع كلمتهم ، ولمَّ شعْبهم ، وجعلهم يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم . وقد هداهم النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن أحسن هداية ، وقادهم

هو وأصحابه من بعده إلى فتح المدائن وغزو الممالك ، وكانوا في كل أعمالهم موفقين مظفرين ، فصار لهم بذلك ملك كبير وسلطان عظيم .

علومهم ومعارفهم

كانت هم العرب في بداءة الإسلام منصرفة إلى نشر دينهم وإنشاء دولتهم ، ولم تكن لهم عناية تذكر بشيء من العلوم عدا القرآن ، فانه كان قوام الإسلام وأساسه ، وفي تأييده تأييد الإسلام والجامعة الإسلامية . وقد انقضت أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء الراشدين من بعده ، والهمم على حالها منصرفة عن العلوم وتدوينها ، اللهم إلا ما كان من أمر كتابة المصحف .

جاء عصر بني أمية وقد انتشر الإسلام ، واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة في الأقطار ، واختلط العرب بالأعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان ، وفشا اللحن ، وحدثت الفتن ، واختلفت الآراء ، وكثرت الفتاوى في مسائل الدين ، فاضطروا إلى تدوين شيء من العلوم يحفظون به لسانهم ودينهم ، ولم يتعد ذلك قواعد النحو وبعض الأحاديث وأقوال طائفة من فقهاء الصحابة في التفسير .

جرت ريح العلم هكذا رخاء في صدر الإسلام وعصر بني أمية ، حتى إذا آلت الخلافة إلى بني العباس واستقر الملك فيهم ، نهض خلفاؤهم إلى تشجيع العلم وحث الناس على تحصيله ، وأخذوا يقربون العلماء ويبالغون في إكرامهم واحترامهم ، فاشتد الإقبال على الدرس والتحصيل ، وراجت بضاعة التدوين والتصنيف . ولم يقتصر الخلفاء على معاضدة العلوم الإسلامية بل شملوا بعنايتهم علوم الأمم المتحضرة الحديثة والقديمة ؛ ولذلك أخذ المترجمون ينقلون إلى العربية علوم الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهند والفرس واليونان والروم ، فذخرت بذلك بحور العلم ، وكثرت فنونه كثرة يدهش لها الإنسان . ويجمل بنا في هذا المقام أن نذكر للقارئ طائفة من العلوم التي اشتغل بها العرب في الإسلام ووصلوا فيها إلى غاية بعيدة .

العلوم اللسانية

لما كثرت اختلاط العرب بالأُمم المختلفة من الأعاجم فسدت ملكة اللغة فيهم ، وفشا اللحن في ألسنتهم ، فحافوا على القرآن أن يستغلق فهمه ويصعب استنباط الدين منه ، فوضعوا العلوم اللسانية التي تساعد على حفظ اللغة وبقاء القرآن مفهوماً . ومن هذه العلوم النحو والصرف ومتن اللغة والبلاغة بأقسامها . وجمعوا أخبار جاهليتهم وما أثر عنها من الشعر والخطابة ، وألفوا في ذلك الكتب والرسائل ، فحفظوا بذلك لغتهم وأمنوا عليها الضياع والفساد

العلوم الشرعية

لم يكن اهتمام العرب بالعلوم اللسانية إلا وسيلة لتفهم القرآن واستنباط الشريعة منه . ومن هنا نرى أن عناية المسلمين بالعلوم الشرعية كانت تفوق عنايتهم بعلوم اللسان . وتشمل العلوم الشرعية علوم التفسير والقراءات والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض والجدل والكلام ؛ وقد بذل المسلمون في هذه العلوم منتهى الجهد ، ووصلوا فيها إلى غاية ليس وراءها مطمع لمستزيد ، فصنفوا فيها ألوف الألوف من الكتب ، ولم يذروا صغيرة من مسائل الدين والاعتقاد إلا بحثوا فيها بحثاً مستفيضاً حتى أصبحت الشريعة بفضل جهدهم بَيِّنَةً ظاهرة لا لبس فيها ولا خفاء .

التاريخ

نبغ العرب في التاريخ وافتتوا فيه أيما افتنان . فكتبوا في الأنساب ، وفي طبقات الرجال ، وفي سير ملوك الفرس ، وفي تاريخ الأمم والممالك ، وقد خلفوا في كل فن من هذه الفنون كتباً كثيرة قيمة ، وأكثرها حسن العبارة بليغ الأسلوب . ومن أشهر من مؤرخي العرب أبو عبيدة ، والأصمعي ، وابن قتيبة ، والطبري ، والمسعودي ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، وغيرهم كثير .

علم وصف الأرض

اشتغل العرب بعلم وصف الأرض قبل أن يُنقل هذا العلم إلى العربية ، وقبل أن يطلعوا على كتاب بطليموس . وقد ساعدهم على الاشتغال به أمور كثيرة . منها الحج فإن المسلمين على اختلاف بلادهم وأقاليمهم يحجون جميعاً إلى مكة ؛ والقُدومُ إلى مكة من الأقطار النائية يستلزم معرفة الأماكن والبلاد . ومنها الرحلة في طلب العلم ، فقد كان المسلمون يرحلون في طلب العلم إلى جميع الأقطار الإسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الطرق والأماكن المختلفة . ومنها كثرة الفتوح وانتشار المسلمين في البلاد التي فتحها الإسلام .

ولما تُرجمَ علم وصف الأرض ونقلت كتيبه إلى اللغة العربية واطلع عليها العرب ، استفادوا منها كثيراً وزادت معرفتهم بأوصاف الأماكن وطبائع الأقاليم ، وأخذوا يؤلفون الكتب على مثال الكتب الأجنبية ، ولم يقفوا عند هذا الحد حذر النقل والتقليد ، بل ركبوا البحار وجابوا الأقطار ودونوا ما شاهدوه وحققوا ما دونوه وأصلحوا كثيراً من أغاليط بطليموس . وقد صنعوا كثيراً من المصورات والكرات الأرضية المثقنة المضبوطة . ومما يدل على فضلهم وسبقهم في هذا المضمار أن الأوربيين لما تمكن من قلوبهم حب الكشف وهاجهم الميل إلى الاطلاع فذهبوا إلى مجاهل أفريقيا وإلى جزائر الأوقيانوسية هالهم ما رأوا هناك من الآثار التي تدل على أن العرب سبقوهم إلى هذه الأقاليم منذ مئات من السنين . وقد اشتهر من العرب في هذا العلم طائفة كبيرة منهم أبو زيد البلخي ، والإصطخرى ، والمسعودي ، وأبو الفداء ، والشريف الإدريسي . وكتب هؤلاء مطبوعة موجودة .

العلوم الدينية

لما اتسع سلطان المسلمين ودانت لهم الممالك العظيمة وفرغوا من وضع علوم الدين واللغة ، تآقت نفوسهم إلى الاشتغال بعلوم الأمم المتمدينة قبلهم من منطق وطبعيات

ورياضيات وإلهيات ، وما تفرع عنها من طب وصيدلة وفلاحة وكيمياء ، ومن حساب وجبر وهندسة وفلك وسياسة وأخلاق وغيرها .

أقبل العرب على نقل هذه العلوم من اللغات الأجنبية ، وعكفوا على تحصيلها ودراستها فأنقنوها أيما إتقان . وقد بدءوا اشتغالهم بالترجمة والنقل ، ثم انتقلوا من هذا الدور إلى دور التحقيق والتأليف والنقد .

(١) دور الترجمة والنقل : كان العصر العباسي أزهى العصور الإسلامية التي اشتغل فيها المسلمون بنقل العلوم الأجنبية الدخيلة . وأول الخلفاء العباسيين اهتماماً بها أبو جعفر المنصور ، فإنه على فرط عنايته بالعلوم الإسلامية كان كثير الشغف بالطب والنجوم والهندسة ، وقد ترجمت له فيها كتب كثيرة .

ولما جاء المأمون وكان واسع العلم غزير الفضل ميالاً إلى حرية التفكير والقول محباً للأخذ بالأقيسة العقلية في الأمور الدينية ، تسارع الناس في زمنه إلى الأخذ بمذهب الاعتزال الذي أساسه تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية . وقد مال المأمون نفسه إلى هذا المذهب وقرب إليه أشياخه وجعل يعمل على تأييده بالحجة والبرهان . ولما رأى دراسة الفلسفة والمنطق تساعد المعتزلة في إقامة الحجة وتعينهم على ترتيب الأدلة وإقناع الخصم ، أمر بنقل كتبهما من اليونانية إلى العربية ، ونظر فيها هو وأصحابه فرسخت عقيدتهم ، وازدادوا تمسكاً بالاعتزال . وقد رأى غير المعتزلة من السنيين أن ينظروا أيضاً في الفلسفة ليستطيعوا بذلك أن يناظروا خصومهم ويجادلوهم بمثل أدلتهم ، ففعلوا وشاعت الفلسفة بين طبقات المسلمين .

بدأ المأمون بنقل الكتب المنطقية والفلسفية ، ولم يلبث بعد ذلك أن جعل الترجمة عامة لجميع الكتب اليونانية ، فدعا المترجمين من جميع الأقطار وأجرل لهم من العطاء ، فترجموا له كتب الطب والنجوم والطبعيات ، ولم يتركوا علماً من العلوم المعروفة إلا ترجموا فيه أكثر من كتاب .

استمرت هذه النهضة بعد المأمون بعناية جملة من خلفائه ، حتى لم يبق علم مما صنف

فيه اليونان والسريان والفرس والهنود إلا عرفه المسلمون بما ترجم لهم من كتبه . قال صاحب كتاب التمدن الإسلامي في الجزء الثالث ما نصه

« وجملة القول أن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفًا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند الأمم المتمدينة في ذلك العهد ، ولم يغادروا لسانًا من ألسنة الأمم المعروفة إذ ذاك من غير أن ينقلوا منه شيئًا وإن كان أكثر نقابهم من اليونانية والفارسية والهندية ؛ فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان . وفي الطب والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود . وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الإنباط والكلدان . وفي الكيمياء والتشريح على المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان . وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي الدخيلة »

(٢) دور التحقيق والتأليف : لم تكد العلوم الدخيلة تنتقل إلى العربية حتى أخذ المسلمون في دراستها والاشتغال بها ، وقد كان اشتغالهم بها في أول الأمر لا يتعدى النظر والتلخيص والشرح حتى إذا كسبوا ملكاتها أخذوا يتدبرون كل علم يدرسونه منها ويحققون مسأله بكل ما أوتوه من قوة عقل وصحة فهم ، وقد تمكنوا بذلك من إصلاح كثير من الأغاليط التي أحدثتها الترجمة ، وكذلك الأغاليط التي وقعت لليونان أنفسهم ، واستطاعوا أن يضيفوا إلى هذه العلوم الدخيلة آراء جديدة وفكرًا صالحة من عند أنفسهم . وبذلك دخلوا في طور التأليف والتكامل والاختراع . وقد جعلوا عامهم بهذه العلوم عمليًا مبنياً على المشاهدة والتجربة بقدر ما كان مستطاعًا في تلك الأيام . وقد ساعدتهم ذلك على ابتكار مخترعات عجيبة وصنع آلات دقيقة إلى غير ذلك مما هو مفصل في غير هذا المكان .

وقد نبغ في كل علم من العلوم الدخيلة طائفة كبيرة من علماء المسلمين . فمن الذين نبغوا في الفلسفة يعقوب الكندي ، وأبو نصر الفارابي ، وابن سينا ، وحجة الاسلام الغزالي ،

وابن رشد . وممن نبغوا في الطب ابن ماسويه ، وابن سهل ، وابو بكر الرازي . وممن نبغوا في العلوم الرياضية والفلكية أبناء موسى بن شاكر ، والخوارزمي ، وابو معشر الفلكي وابن يونس المصري ، وابن الهيثم الرياضي .

أخذ الفرنجة عن العرب

عرف العرب قيمة العلم وعكفوا على تحصيله وتحقيق مسائله ، وترجموا كتب الأقدمين من اليونان والروم والفرس والهنود ، وأقبلوا على التدوين والتصنيف ، ومهروا في الاختراع وحذقوا الصناعات . قاموا بكل ذلك حين كان الأوروبيون تأهين في دياجير الجهالة ، مستسلمين للخرافات والعقائد الفاسدة ، بعيدين عن العلم الصحيح والأخذ بأسبابه .

ولما اتسعت فتوح المسلمين وعظم سلطانهم وامتد نفوذهم في أوربا وغيرها ، شاهد الفرنجة من علومهم وفنونهم ما هالهم ، فتاقت نفوسهم إلى الأخذ عنهم والتلقى عليهم فأقبلوا على دراسة اللغة العربية حتى إذا أتقنوها صرفوا همهم إلى تحصيل معارف العرب فجلسوا إلى علمائهم وفلاسفتهم ، ونظروا في كتبهم ، ونهلوا من حياضهم ، ونقلوا إلى بلادهم ما شاء الله أن ينقلوه من العلوم والفنون .

وما كاد الأوروبيون يتذوقون حلاوة العلوم العربية حتى ثارت الحمية فيهم ، فنزح إلى الأندلس طوائف كثيرة من الإيطاليين والفرنسيين والجرمانيين والانجليز ، حتى إذا أساغوا ما شاءوه من علم وحكمة ، عادوا إلى بلادهم فأقاموا المدارس والمعاهد ودعوا إليها الناس فلبوا سراعاً . وما أجهل ما كتبته إحدى الصحف الانجليزية في إثبات ما كان للعرب من المآثر في العلوم والفنون ، وما كان لهم من الفضل على الفرنجة في ذلك قالت « إنا لمدينون للعرب كثيراً ، فانهم الحلقة التي وصلت مدينة أوربا قديماً بمدنيتها حديثاً ، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف واستيقظوا من النوم العميق الذي ناموه في العصور المظلمة . ونحن لهم مدينون أيضاً بترقية العلوم الطبيعية والفنون الصادقة النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت أوربا وقدمتها في الحضارة والمدنية » .

التربية

أغراضها

لم يكن غرض المسلمين من التربية دنيوياً محضاً كما كان عند اليونان والروم مثلاً ، ولم يكن دينياً محضاً كما كان عند الاسرائيليين في الصدر الأول ، وإنما كان غرضهم دينياً ودنيوياً معاً . فقد كانوا يرمون إلى إعداد المرء لعملي الدنيا والآخرة . وفي القرآن والحديث وآثار السلف ما نبههم على ذلك . قال تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) . وقال صلى الله عليه وسلم « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . وقال أيضاً « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . وقد امتدح أحد الشعراء المأمون بقصيدة قال فيها .

تشاغل الناس بالدنيا وزخرفها وأنت بالدين عن دنياك مشغول
فقال المأمون ويحك ! ما زدتنى على أن جعلتنى عجوزاً في محرابها ومعها سبحتها .
هلا قلت كما قال جرير في عمر بن عبد العزيز

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
وإني لأميل إلى القول بأن غرض التربية عند المسلمين كان تهذيب النفوس وتحصيل الفضيلة ، يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل لهداية الناس وتأديبهم بأدب القرآن فكان أول معلم في الإسلام . وقد أشرعنه أنه قال « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

مناهجها وأساليبها

لما كان القرآن عند المسلمين منبع الدين وأساس العلوم الإسلامية ، جعلوه أصلاً في التعليم وأساساً في التربية . والعرب وإن اختلفوا على ذلك ، مختلفون في مناهج التعليم ومواده على حسب اختلاف أمصارهم .

فأهل المغرب يقتصرون في تعليم أولادهم على مدارس القرآن وأخذهم برسمه وقراءاته المختلفة، ولا يخلطون ذلك بسواه من حديث أو فقه أو شعر أو أخبار إلى أن يحذقه الوليد ويمجاوز حد البلوغ إلى الشبيبة . وكذلك يسيرون على هذا المنهج مع الكبير الذي يراجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره . ومن هنا كان أهل المغرب أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .

وأهل الأندلس يُعلِّمون القرآن ولكنهم لا يقتصرون عليه في تعليم الولدان ، بل يخلطون به رواية الشعر والترسل وقوانين العربية ورواية الأخبار والكتابة وتجويد الخط وكذلك الحساب وتقويم البلدان . ولم تكن عنايتهم بالقرآن بأكثر من عنايتهم بغيره ، على أنه من المقطوع به أن عنايتهم بالخط كانت تفوق عنايتهم بكل شيء سواه . وكان الغلام عندهم لا يجاوز البلوغ إلى الشبيبة إلا وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرَّز في الخط والكتابة وتعلق بأذيال العلم على الجملة . أما أهل المشرق (العراق وما جاورها من البلاد الإسلامية) فكانوا يخلطون في التعليم كأهل الأندلس ، إلا أنهم يختلفون عنهم من جهتين ، أولاهما أن عنايتهم بمدارس القرآن كانت تفوق عنايتهم بالعلوم الأخرى . وثانيتهما أن الخط لم يكن من الفنون التي يخلط تعليمها بتعليم القرآن ، وإنما كانت له معاهد ومعلمون على أفراد كسائر الصناعات ، ولذلك لم تبلغ خطوط الولدان في المكاتب حد الإجادة . ومن أراد منهم أن يجودَ خطه ، ابتغى ذلك عند أهل صنعته .

هذه هي المذاهب التي جرت عليها الأمصار الإسلامية في مواد الدراسة ومناهجها ، وهي مذاهب مختلفة متباينة ، إلا أن أساس جميعها تعليم القرآن والبداءة به .

ولكثير من أئمة المربين في الإسلام مذاهب أخرى في مناهج الدراسة لا يتقيدون فيها بجعل القرآن أساساً ، ومن هؤلاء القاضي أبو بكر العربي ، فإنه يذهب في كتاب رحلته إلى البداءة بتعليم الشعر وعلوم اللغة والانتقال من ذلك إلى تعليم الحساب ، حتى إذا أتقن الوليد ذلك ، انتقل إلى دراسة القرآن فإنه يتيسر عليه فهمه بهذه المقدمة .

ومما يؤثر عنه في ذلك قوله « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب في أمر غيره أولى بالتقديم منه » ولقد وافقه على هذا المذهب العلامة ابن خلدون ، فإنه بعد أن نقل رأيه في مقدمته علق عليه بقوله « وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العادات لا تساعد عليه » .

هذه هي مواد الدراسة في مكاتب الصبيان والمدارس الابتدائية ، وهي كما ترى كثيرة متنوعة في بعض الأمصار ، وقد كان الولدان يصلون في بعض هذه المواد إلى درجة راقية ، وكانوا يتعلمونها تعليماً صحيحاً متقناً . كتب مؤرخ من مؤرخي الفرنجة يقول : « كان العرب في مدارسهم الابتدائية يعلمون أطفالهم تقويم البلدان ، ويستخدمون في ذلك الكرات الصناعية ، في حين كانت الكنائس في رومة وفي القسطنطينية لا تزال تحمل الناس على الاعتقاد بنبات الأرض وانبساطها »

أما مناهج الدراسة في المدارس العالية ، فقد كانت غاية في الرقي والتقدم ؛ ذلك أنها كانت تشمل غير العلوم الشرعية واللسانية الحساب والهندسة وحساب المثلثات والطبعيات والفلك وعلوم الحياة والطب والتشريح والمنطق والإلهيات . وكان كل علم من هذه العلوم يدرس دراسة عملية متقنة تبت في متعلميه روح البحث والتنقيب ، وتقودهم إلى الجليل من أعمال الكشف والاختراع .

أهواء الصفاء ومحنة الدراسة العالية

كانت الفلسفة في العصر الإسلامي على شيوعها وكثرة المتعلقين بها منظوراً إليها بعين السخط من العامة وكثير من أهل الخاصة ؛ وكان أصحابها متهمين في دينهم وعقائدهم ينظر إليهم الناس شزراً ويرمونهم بالكفر والإلحاد ، ولكن هذا الروح لم يكن ليظهر كل الظهور في أيام الخلفاء الموالين للفلاسفة المغرمين بالعلوم الدخيلة . ولما جاء الخليفة المتوكل وكان سنياً يكره الفلسفة وأصحابها ، لقي الفلاسفة في زمنه وبعد زمنه من أنواع العسف والجور ما لا قبل لهم بدفعه ، فاضطروا إلى التستر ، وأصبح الكثيرون منهم ينكرون الفلسفة ظاهراً وهم كلفون بها باطناً . ومن أجل ذلك ألفوا

الجماعات السرية لدراساتها والاشتغال بها. ومن أشهر هذه الجماعات «جماعة إخوان الصفاء». تألفت هذه الجماعة في بغداد في أواسط القرن الرابع للهجرة، وكان أعضاؤها يجتمعون سرًا، ويتباحثون في الفلسفة على اختلاف وجوهها ومناحيها حتى صار لهم فيها مذهب خاص كونه بعد أن درسوا آراء اليونان والفرس واليهود وعدّلوا تعديلاً يلائم روح الدين الإسلامي. وأساس مذهبهم أن الدين الإسلامي أصبح مملوءاً بالخرافات ملوثاً بالجهالات، وأنه لا سبيل إلى تطهيره وإصلاحه إلا بمراجعة العقل فيه، ومزج مسائله بمسائل الفلسفة اليونانية.

ابتدءوا بهذه الفكرة وأقبلوا على البحث والتنقيب، ودونوا آراءهم ومباحثهم في إحدى وخمسين رسالة سموها رسائل إخوان الصفاء، وضمنوها العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة والمنطق والإلهيات؛ فأقبل عليها مريدو الفلسفة وأخذوا يتناقضونها ويتدارسونها سرًا. وكان الطلاب عادة لا ينظرون فيها إلا بعد أن تسبق لهم دراسة ابتدائية تعدهم لتلقي علومها وفنونها، فكانت لذلك منهاجاً للدراسة العالية في البلاد الإسلامية. ابتدأت هذه الرسائل بالبحث في الموضوعات الحسية، وتدرجت منها إلى الموضوعات العقلية، ثم انتهت بالنظر في الأمور الإلهية، وهنا عُرِضَت العقيدة الإسلامية وفُصِّلَت مسائلها تفصيلاً وافياً. ولقد أنصف كتاب الفرنجة هذه الجماعة، فعدوا عملها أحكم عمل أريد به التوفيق بين الفلسفة والدين، وأتم منهاج دراستي وضعه العقل الإنساني في العصور المتوسطة.

معاهد التعليم في الإسلام

(١) الجوامع والمساجد: كان المسلمون في أول عهدهم بالتعليم يتخذون مدارسهم في الجوامع والمساجد كما كانت النصارى يتخذونها في الأديار والكنائس، وكانوا يسمون التلاميذ المجتمعين حول أستاذهم لتلقي العلم «حلقة» وينسبون كل حلقة في الغالب إلى أستاذها، فيقولون مثلاً حلقة أبي إسحق الشيرازي في جامع المنصور. ومن الجوامع التي اشتهرت بالتدريس ما يأتي:

(١) جامع عمرو بن العاص : وقد أنشئ سنة ٢٣ هـ ، وبدأت الدراسة فيه سنة ٣٦ هـ بذكر قصص دينية خلقية قصد بها تعليم المسلمين وتهذيبهم ، ثم اتسع نطاق التدريس به تدريجاً حتى إذا حضره الإمام الشافعي رضي الله عنه سنة ١٨٢ هـ وجد به ثمانى زوايا للتدريس ، فدرس هو في واحدة منها .

(ب) جامع احمد بن طولون : وقد تم بناؤه سنة ٢٥٦ هـ وعين فيه جماعة من العلماء والفقهاء وأجريت عليهم الوظائف والأرزاق . وقد ارتقى التدريس فيه حتى أصبح في عهد الملك حسام الدين لاشين سنة ٦٩٦ هـ موضعاً شهيراً بدراسة الفقه والحديث والقرآن والطب .

(ح) الجامع الأزهر : وهو أشهر الجوامع في التدريس على الإطلاق ، كمل بناؤه سنة ٣٦٠ هـ من الهجرة وبدأت الدراسة فيه لخمس وثلاثين طالباً أجريت عليهم الأرزاق . وكانت الدراسة فيه أولاً مقصورة على القرآن والفقه ، ثم اتسع نطاقها بعد ذلك فتناولت الحديث وكثيراً من العلوم العقلية والنقلية . وقد بلغ عدد طلابه في أواخر القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً جاء كثير منهم من أقصى البلاد الإسلامية ، أما الآن فيبلغ عدد طلابه زهاء عشرة آلاف ، منهم نحو ٧٠٠ طالب من الغرباء .

(٢) المستشفيات والرباطات والمنازل : لم يكن التعليم عند المسلمين في أول أمره خاصاً بالجامع والمسجد ، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المستشفيات والرباطات وغيرها من الأماكن ، وكان الأغنياء يحضرون المعلمين إلى منازلهم لتعليم أولادهم كما كان يفعل الخلفاء والأمراء ، وكما يفعل أهل الوجاهة والثراء في أيامنا هذه .

(٣) المدارس : لم تؤسس المدارس المستقلة الخاصة بالتدريس على النحو الذي نعهده اليوم إلا في زمن متأخر جداً ، ويكاد مؤرخو المسلمين يجمعون على أن أول من بنى المدارس في الإسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي في أواسط القرن الخامس للهجرة .

بنى هذا المصلح الكبير المدارس في بغداد وأصبهان ونيسابور وغيرها ، وكانت

مدارسه جميعها تنسب إليه ، وأشهرها المدرسة النظامية في بغداد ، بناها على شاطئ دجلة سنة ٤٥٧ هـ ورتب فيها العلماء لدراسة العلوم الدينية واللسانية ، وبني حولها أسواقاً ووقف عليها أوقافاً دارّة . وقد كان لهذه المدرسة شأن كبير في العالم الإسلامي وقد تخرج منها جماعة من فحول العلماء ، وكان من أساتذتها أبو اسحق الشيرازي ، وأبو حامد الغزالي ، وكمال الدين الأنباري .

ثم اقتدى السلاطين والأمراء بنظام الملك في تأسيس المدارس المجانية في أنحاء المملكة الإسلامية ، فامتألت بها دمشق وحلب وحماة وحمص وبلبك وغيرها من بلاد الشام ، وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من بلاد الأندلس ، ثم مصر والإسكندرية (٤) دور الكتب : يرجع الفضل في إنشاء دور الكتب في البلاد الإسلامية إلى خلفاء النهضة العباسية . نعم قد قامت جملة من دور الكتب في الإسلام قبل ذلك إلا أنها كانت فردية لا تعد من قبيل دور الكتب العامة التي ينشئها ولاية الأمور ومن في حكمهم . وقد انتشرت هذه الدور بسرعة ونهض الناس إلى تأسيسها في العراق والأندلس ومصر وغيرها من الأقطار .

ففي بغداد كان بيت الحكمة ، أنشأه هرون الرشيد وجمع إليه ما كان قد نقل إلى العربية من كتب الطب والعلم ، وما كان قد صُنّف في العلوم الإسلامية ، وكذلك ما وقع له من كتب الروم في أنقرة وغيرها . ولما تولى المأمون شمله بعنايته فأضاف إلى ما فيه كثيراً من كتب العلم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية بلغة العربية . وقد كان لهذا البيت قِيَمٌ يدير شئونه ويتولى أموره ويسمى صاحب بيت الحكمة ، وأشهر من تولى هذه القِوامة سهل بن هارون . وقد قامت في بغداد بعد بيت الحكمة دور كتب أخرى كثيرة تعهد بها الوزراء والأمراء وجمعوا لها الكتب آلافاً مؤلفة ، فكانت هذه الدور جميعها ركناً من أركان النهضة العلمية في الدولة العباسية .

وفي الأندلس تشبه بنو أمية بالمأمون فأخذوا في إنشاء دور الكتب ومثلها بنفيس الأسفار وعجيب المخطوطات . وأشبههم به في ذلك الحكم بن الناصر ، فقد كان محباً

للعلم والعلماء . وقد أنشأ في قرطبة دار كتب كبيرة وجمع إليها الكتب من جميع الجهات ، وكان يرسل التجار لشراؤها من أسواق العالم ، ويحضهم على كثرة البذل والعطاء في هذا السبيل حتى بلغ عدد أسفارها على ما ذكره ابن خلدون ٤٠٠.٠٠٠ مجلد .

وفي مصر كانت خزائن القصور بالقاهرة وهي دار كتب فخمة موزعة في قصور عدة ، ويقدر رجال التاريخ عدد أسفارها بألف ألف مجلد . ثم دار الحكمة : أنشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر العربي بالقاهرة ، ويقدر ما كان فيها من الكتب بنحو مائة ألف مجلد .

وهناك غير ما ذكرنا دور كتب أخرى كثيرة أنشئت في جهات متفرقة من العالم الإسلامي ، وقد كان الغرض من إنشاء أكثرها تسهيل دراسة العلم وتيسير أمر الترجمة والتأليف .

النساء في العصر الإسلامي

كانت المرأة العربية في العصر الإسلامي مشهورة بالعفة والأنفة ، معروفة بسداد الرأي ورجحان العقل ، وكان علمها على الجملة غزيراً وفضلها عظيماً وتأثيرها في الدولة كبيراً . كانت تقرأ القرآن وتحفظ الحديث وتنشد الأشعار وتروى الأخبار وتعرف مطالع النجوم وتشارك الرجال في شئون السياسة وتسير معهم الى ساحات القتال .

وقد اشتهر كثير من نساء المسلمين وجرت بهن الأمثال . منهن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . كانت ذات عقل راجح وعلم واسع وفيها دهاء وقوة ؛ رأست حزباً كبيراً من الصحابة وأثارت حرباً عواناً ، وكانت حجة في رواية الحديث ومسائل الدين . ومنهن عائشة بنت طلحة بن عبد الله الصحابي ، فقد كانت ذات عقل ورأى وعلم وأدب ، وكانت على فرط جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لجليل قدرها وعظيم شرفها ، وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها بالمدينة فيفد إليها الشعراء وينشدون أشعارهم بين يديها فتجيزهم الجوائز الكبيرة . ومنهن ثُماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد الملقبة بالخنساء . كانت من شواعر العرب المعترف لهن بالتقدم ، وكانت ذات رأى وعفة ودين ، ومما

يدل على نبيلها وفضلها ما كان من أمرها في وقعة القادسية ؛ وذلك أنه كان لها بنون أربعة نفروا في جيوش المسلمين لفتح فارس ، فسارت معهم وخطبتههم أول الليل فقالت : « يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ؛ ما هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا وربطوا وثقوا بالله لعلمكم تفلاحون . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وجلت ناراً على أرواقها فتيعموا وطيسها وجالدوا رئيسها تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة . » فلما أسفر الصبح بادروا مراكرهم ، وتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قُتلوا عن آخرهم ، فبلغها الخبر فقالت « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة »

وقد ظهرت قوة النساء بأجلى مظاهرها في أيام الدولة العباسية ، فقد أحرزن نفوذاً واسعاً وأثرن في الدولة تأثيراً كبيراً . واعتبر ذلك في أمهات الخلفاء العباسيين ؛ فقد كانت الخيزران أم الهادي والرشيد ذات جبروت وقوة يهابها أولادها ويأترون بأمرها ، ومن عصاها منهم أوحاول نزع السلطان من يدها حققت عليه ودبرت له المكائد وربما قتلته . كانت أيام زوجها صاحبة الأمر والنهي ، ولما تولى ابنها الهادي أرادت أن تسلك معه مسلكها مع أبيه ، فاستبدت بالأمر دونه ولم يمض على توليته أربعة أشهر حتى كان الأمر كله بيدها ، وأخذت المواقب تروح وتغدو إلى بابها ، فساء ذلك وجرد سيف عزمه ليحول بينها وبين التدخل في شؤون الدولة ، ولكنها حين أحست أمره ، ورأت بوادر غضبه ، دست إليه بعض جواربها فقتلته . ولما كانت أيام الرشيد استبدت بالأمور واحتشدت الأموال في خزائنها حتى بلغ دخلها في العام نصف دخل المملكة العباسية في ذلك الوقت . وكانت أم المستعين بالله وكذلك أم المقتدر على هذا النحو ؛ كانت أيديهما مطلقة في ملك ولديهما ، وكان لهما سلطان واسع ونفوذ عظيم .

لم يكن نفوذ النساء وسلطانهن مقصوراً على أمهات الخلفاء ، فقد كانت أم موسى

الهاشمية القهرمانة في أيام المقتدر ذات دهاء ونفوذ ، حتى لقد بلغ من أمرها أن تكفلت مرة بالخلافة لأحد العباسيين من أصهارها ، وأخذت تبذل الأموال للقواد وغيرهم ، ولولا أن وصى الواشون بها إلى المقتدر لأفلحت فيما تكفلت به .

رجال التربية في العصر الإسلامي

نبغ في العصر الإسلامي عدد وفير من رجال التربية ، منهم القاضي أبو بكر العربي وأبو حامد الغزالي ، وابن خلدون وغيرهم من قادة المربين الذين لم تزل آراؤهم الى الوقت الحاضر موضع العناية وموطن الهداية ، ولنترجم لبعض منهم تراجم مجملة تشرح ما لهم من المذاهب السديدة والمبادئ الرشيدة في التربية والتعليم .

(١) الغزالي

هو شيخ المريدين وإمام المربين حجة الإسلام أبو حامد الغزالي صاحب كتاب إحياء العلوم . ولد سنة ٤٥٠ هـ ونشأ بطُوس وتعلم بها مبادئ العلوم ، ثم قديم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني شيخ الوقت وإمام الشافعية في ذلك العصر . وجدّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قصيرة وصار من أكابر الأشاعرة وفقهاء الشافعية ، وأصبح أستاذه يفاخر به العلماء ويتباهى بتعليمه

ولما مات الجويني خرج من نيسابور إلى العسكر وهي محلة بالقرب من نيسابور ، فلقى بها الوزير نظام الملك وكان بحضرته جماعة من أكابر العلماء فاشتركوا في المناقشات وجرى بينهم الجدل والمناظرة في مجالس عدة ، فظهر عليهم جميعاً وأقر له فحول العراق بالفضل ، فعلت مكانته عند الوزير وفوض اليه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد ، فحباها سنة ٤٨٤ هـ وتولى التدريس بها . وقد كانت هذه المدرسة تشبه من بعض الوجوه المدارس العالية في أيامنا الحاضرة ، فلم ينتظم في سلك طلابها إلا من قاربوا الانتهاء من علومهم .

استمر الغزالي على التدريس بهذه المدرسة أربع سنوات ثم طرأت عليه حال زهادة في الدنيا فترك جميع ما كان عليه وآثر العزلة عن الناس ، وخرج الى البلد الحرام سنة ٤٨٨ هـ قاصداً الحج ، ثم ذهب إلى دمشق وأقام بها مدة معتكفاً متجرداً عن الدنيا ومشاعلاً ، ثم دخل مصر وأقام بالاسكندرية مدة ، وعاد بعد ذلك إلى وطنه بطوس واشتغل بتصنيف الكتب ، ثم لزم التدريس بنيسابور . وأخيراً رجع إلى وطنه حيث قضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر ، ومات بالطابران قسبة طوس سنة ٥٠٥ هـ

خلف الغزالي ما يزيد على سبعين مؤلفاً أكثرها في الفقه والجدل والمناظرة والرد على الفلاسفة والدفاع عن الدين ، ومن أشهر كتبه كتاب إحياء علوم الدين في التصوف والأخلاق ، وقد بسط فيه آراءه في التربية والتعليم بأسلوب واضح لا لبس فيه .

آراء الغزالي في التربية والتعليم

رأيه في منزلة صناعة التعليم

يرى الإمام الغزالي أن صناعة التعليم أشرف الصناعات التي يستطيع الإنسان أن يحترف بها ، ويستدل على ذلك بالنقل والعقل .

أما أدلته العقلية فكثيرة ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس ، فقال : أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلماً ، ثم عدل إليهم وجلس معهم . ومنها أيضاً ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : على خلفائي رحمة الله ، فقليل له ومن خلفاؤك ، فقال الذين يحبون سنتي ويعلمونها عباد الله .

وأما شواهد العقلية فمنها أن شرف الصناعة يعرف بشرف محلها كفضل الصياغة على الدباغة إذ محل الأولى الذهب ومحل الثانية جلد الميتة ، ولا شك أن لصناعة التعليم

من شرف المحل أوفى حظ وأتم نصيب ، فإن المعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم ، ولا يخفى أن أشرف مخلوق على الأرض هو الإنسان وأن أشرف شيء في الإنسان قلبه والمعلم مشغول بتكمله وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل .

رأيه في غرض التربية

يرى الغزالي أن الفضيلة والتقرب إلى الله تعالى أهم أغراض التربية ، يدلك على ذلك قوله « ومهما كان الأب يصون ولده عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ، وصيائته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق » . وقال أيضاً « الخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين » . وقال في موضع آخر « على المعلم أن يذبه المتعلم على أن الغرض بطلب العلوم التقرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة » (١) .

رأيه في فطرة الطفل

يلوح لنا أن الغزالي يذهب مذهب المنكرين للغرائز والوراثة ، ويرى أن الطفل يخرج إلى هذه الحياة صحيفة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير ؛ يدل على ذلك قوله « والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه » ، وقد كان هذا مذهب كثير من المربين في الأزمنة الغابرة ، ولكن التربية الحديثة قد نقضته وأظهرت بطلانه ، وأثبتت بالبراهين الدامغة أن الطفل يولد مزوداً بالغرائز مملوءاً بكثير من آثار تجارب أمه وأبيه (٢) .

(١) راجع في الجزء الثالث من الاحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق . وراجع في الجزء الاول منه الباب الخامس من كتاب العلم

(٢) راجع في الجزء الثالث من الاحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق

آراؤه في تربية الطفل وتأديبه

عقد الغزالي في كتاب الإحياء فصلاً لرياضة الصبيان في أول نشوئهم ، وبسط فيه آراءه ومبادئه بسطاً وافياً ، وتعرض لأقسام التربية الجسمية والعقلية والخالقية ، وخلاصة آرائه تنحصر فيما يأتي : -

(١) أن يعتنى بتربية الطفل من مبدأ ولادته وأن يراقب من أول أمره ، فلا يستعمل في حضائته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة . ومما يؤثر عنه في وجوب المبادرة بتأديب الطفل قوله « إن الصبي إذا أهمل في بدء نشوئه خرج غالباً رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً غامماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكيد ومجانة ، وإنما يحفظ عن ذلك بحسن التأديب » .

(٢) أن يعود الاخشيشان في مطعمه وملبسه ومفرشه ، ومأخذ ذلك قوله « ينبغي أن يؤدب الطفل في الطعام . . . وأن يعود الخبز القفّار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً . . . ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن . . . وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والابرسم ، ويُقرّر عنده أن ذلك شأن النساء والخنثين » ، ثم قوله بعد ذلك « ويمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسخف بدنه » .

(٣) أن يعلم في المكتب القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار لينغرس في قلبه حب الصالحين ، وأن يُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ، ويجنب مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس في قلب الطفل بذور الفساد .

(٤) أن يأخذ حظاً وافراً من الرياضة البدنية فإن ذلك يقوى جسمه ويملؤه نشاطاً ، وفي ذلك يقول « ويعود في بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » . وفي موضع آخر يقول « وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب أن ياعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب التعلم بحيث لا يتعب في

اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكاه
وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه .

(٥) أن يعود الأخلاق الجميلة والعادات الحميدة ويجنب الرذائل والمساوى ،
فيعود الشجاعة والصبر والتواضع ، وإكرام العشير وتوقير الكبير وقلة الكلام وحسن
الاستماع وترك اليمين وطاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه ، وأن يمنع من لغو الكلام وفحشه
والافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه .

(٦) أن يحفظ من قرناء السوء ، فإن أخلاق هؤلاء تنتقل إلى معاشريهم كما
تنتقل الأمراض من المراض إلى الصّحاح .

(٧) أن يكافأ على كل خلق جميل أو فعل حميد يظهر منه ، ليكون ذلك تشجيعاً
له وباعثاً على الاستكثار من الخير .

(٨) الاقتصاد في لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب ، وفي ذلك يقول « ولا تكثر
القول عليه بالعتاب في كل حين فإن ذلك يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح
ويخفف وقع الكلام في قلبه . وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً
وعلى الأم أن تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح »

(٩) إذا بلغ الوليد سن التمييز وجب أن يعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع
وأن يؤخذ بكثير من أمور الدين فلا يسامح في ترك الطهارة والصلاة

(١٠) إذا وصل الغلام سن البلوغ صح للمربي أن ينفه على أسرار الشريعة
والآداب التي أخذ بها فيما قبل ، فإنه في هذه السن تتولد فيه القوى العقلية التي تساعد
على إدراك كل ذلك^(١) .

آراؤه في تهذيب الخلق والطريق إليه

يرى الغزالي أن أقوم الطرق لاكتساب الفضائل إنما هي المجاهدة والرياضة ،
ويعني بهما حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب « فمن أراد مثلاً أن

يُحَصِّلُ لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب به نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً . وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر عنه لذيذاً .

ومن الطرق التي أرشد إليها في النزوع عن الأخلاق السيئة سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل إليه . قال « كما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتته تكلفاً » .

كذلك من نصائحه الغالية ألا يؤخذ الغلمان جميعاً بطريق واحدة ، وألا يعاملوا معاملة واحدة في العلاج والتهذيب ، وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم . قال « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربي لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، وإنما ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبني على ذلك رياسته » .

ومن وصاياه النافعة في تهذيب الأخلاق والنزوع عن العادات السيئة ، أن يسلك المربي سبيل التدرج مع الغلمان الذين لا يقتدرون على ترك الخلق السيئ دفعة واحدة قال « ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ، أن ينقله المربي من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه » (١) .

(١) راجع في الجزء الثالث من الأحياء كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

الغزالي والتعليم العالي

كان الغزالي يزاول التعليم في المدرسة النظامية ببغداد وهي أشبه شيء بمدارسنا العالية، وكان فحول العلماء ونوابغ الطلاب يحضرون دروسه، فلا غرو أن جاء أكثر كلامه عن التعليم خاصاً بالتعليم العالي. وقد وضع لمن يشتغل به من المتعلمين والمعلمين آداباً خاصة ضمنها آراءه في مواد التعليم وطرقه. ونحن نسوق إليك هذه الآداب بنوع من الاختصار ملتزمين عبارته في أكثر المواطن.

آداب المتعلم

(١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، فإن الطالب السيئ الأخلاق أبعد الناس عن العلم الحقيقي النافع.

(٢) أن يقلل علاقته بالدنيا والاشتغال بها ويبعد عن الأهل والوطن في طلب العلم، فإن العلائق شاغلة وصارفة، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

(٣) ألا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه بزمَام أمره في كل تفصيل، ويدعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق. وإن نصحه المعلم بطريق في التعليم فليتبعه وليدع رأيه، فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه. وبالجملة كل متعلم استبق لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم جدير أن يحكم عليه بالإخفاق والخسران.

هذا رأيه، وفي اعتقادنا أنه مغال فيه إلى درجة تضعف من إرادة المتعلم، وتقلل من اعتماده على نفسه ويجدر بطالب العلوم العالية ألا ينقاد انقياد الأعشى، وألا يكون إمعة يتابع الناس ولا رأى له.

(٤) أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس في العلوم، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريقة الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم

بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأى واحد وإنما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده ، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم .

(٥) ألا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحموده إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض

(٦) ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم ، فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه

(٧) ألا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذى قبله فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والمدقق من راعى ذلك الترتيب والتدرج

(٨) أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملائكة الأعلى من الملائكة والمقربين ، وألا يقصد بالتعلم الرياسة والمال والجاه وممارسة السفهاء ومباهاة الأقران .

(٩) أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كى يؤثر القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهتك ، ولا يهتك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة فالأهم نعيم الآخرة الذى يبقى أبداً الآباد . أما المقصد الذى تنسب اليه العلوم فهو السعادة بقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم^(١)

آداب المعلم المرشد

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يجزيهم مجرى بنيه

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلم الطلاب لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ، ولا يرى لنفسه منة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تقترب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها .

(١) راجع فى الجزء الاول من الاحياء الباب الخامس من كتاب العلم

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبهه على أن الغرض من طلب العلوم التقرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة .

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار ، قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم : لومع الناس عن فت البعر لفتوه .

(٥) ألا يُقَبَّح المتكفل ببعض العلوم في نفس المتعلم شيئاً من العلوم التي وراءه ، كعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ، فهذا خلق مذموم للمعلمين ينبغي أن يُجْتَنَب ، بل الواجب على المتكفل بعلم واحد أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فعليه أن يراعى التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه اقتداءً في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم فإنه قال : نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم .

(٧) ألا يُلقَى على المتعلم القاصر إلا الجلي اللائق به ، ولا يليق أن يذكر له معلمة أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله ، وأشد هم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله .

(٨) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأر باب الأبصار أكثر ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود فكيف يستوي الظل والعود أعوج^(١) ؟

(١) راجع في الجزء الاول من كتاب الاحياء الباب الخامس من كتاب العالم تاريخ التربية (٢٥)

(٢) ابن خلدون

هو إمام المؤرخين وعمدة المرين وأحد الكتاب المجيدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون . ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ ، ثم حفظ القرآن وقرأه بالسبع ودرس الفقه والحديث ، وتعلم صناعة العربية على والده وعلى أستاذي تونس ، وأخذ العلوم العقلية والفلسفية عن بعض حكماء المغرب ، ونبغ في كل ما تلقاه ودرسه حتى شهد له شيوخه بالنبوغ والتبريز .

ولم يزل منذ نشأ وناهز مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، منتقلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن دهم أفريقية طاعون جارف مات فيه والده وكثير من ذوى قرابته وشيوخه ، فاحترف بصناعة الكتابة ، فكتب لبعض الملوك في تونس وفي فاس ، ورحل بعد ذلك إلى ملوك بني الأحمر بالأندلس ، فحظى عندهم وأقام معهم ما شاء في إجلال وإكرام ، ثم بقي يتردد بين المغرب الأوسط والأقصى وأفريقية والاندلس والملوك يقبلون عليه ويتنافسون في استمالته إليهم ، فكتب ووزر لكثير منهم ، وتقلب في أعلى مراتب الحكم والسلطان حتى حسده أصدقاؤه وأحباؤه وكثرت السعيات فيه ، ففضل أن يعتزل السياسة وينقطع إلى العلم ، فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربع سنين ، وهناك شرع في تأليف تاريخه فأكمل المقدمة وكتب بعض التاريخ .

دخل ابن خلدون مصر سنة ٧٨٤ هـ وجلس للتدريس في الأزهر ، واتصل بسلطانها برقوق فأكرمه وولاه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ . ولما طاب له المقام في القاهرة حركه الشوق إلى أهله وولده فأرسل يستقدمهم من المغرب ليقیموا معه ففرقت بهم السفينة ، فتولاه الجزع ونال منه الحزن حتى أعرض عن الدنيا وزهد فيها ، ولذلك استقال من منصبه وانقطع للتدريس والتأليف ، فأتم تاريخه ، ثم مات سنة ٨٠٨ من الهجرة .

مؤلفه في التاريخ

لم يشتهر ابن خلدون بشيء شهرته بتاريخه ، وهو ثلاثة كتب في سبع مجلدات

(١) الكتاب الأول في العمران وما يعرض فيه من أحوال الملك والكسب والمعاش والصناعات والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب . وهذا الكتاب هو المشهور بالمقدمة وبها وحدها نال شهرته الفائقة .

(٢) الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجياهم ودولهم منذ الخليفة إلى عهده ، مع الإلماع إلى من عاصروهم من الأمم كالنبط والسريان والفرس والقبط واليونان وغيرهم .

(٣) الكتاب الثالث في أخبار البربر وما كان لهم بديار المغرب من الدول .
ويمتاز تاريخ ابن خلدون هذا بما تضمن من المقدمات الفلسفية التي تحلت بها صدور فصوله ، وبتلك اللغة العالية التي كُتِبَ بها ، فقد كادت لغته في المقدمة تصل إلى درجة من البلاغة تضارع بلاغة الكتاب النابغين في القرن الثالث .

آراؤه ومبادئه في التعليم وطرقه

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً طويلاً في التعليم وطرقه وسائر وجوهه ، وضمنه آراءه ومذاهبه في تلقين العلوم وطريق إفادتها ، وها نحن أولاء نسوق إليك آراءه ونعرض عليك نصائحه مؤثرين عبارته في كثير من المواطن ، ومجملين جميع ما ذكره في الأمور الآتية : -

(١) الإجمال في البداية ثم التفصيل بعد ذلك ، فتلقى على التلميذ أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ، وتشرح له على سبيل الإجمال حتى ينتهي إلى آخر الفن ، ثم يرجع به الأستاذ إلى الفن ثانية ويرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويخرج معه من الإجمال إلى التفصيل ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن ، فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عوياً ولا مغلقاً إلا أوضحه وفتح له مقله ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . فالتعليم الجيد المفيد على رأيه إنما يحصل بالتكرار ثلاث مرات على النحو الذي سبق

(٢) الاعتماد في أول الأمر على الأمثلة الحسية ، فإن المبتدئ في أول أمره ضعيف الفهم قليل الإدراك ولا يعينه على فهم ما يلقي عليه مثل الأمثلة الحسية .

(٣) ألا يؤتى بالغايات في البدايات ، ومعنى ذلك ألا يؤتى بالتعاريف والقوانين الكلية في أول الأمر ، بل يجب الابتداء بالأمثلة الكافية ثم الانتقال منها إلى التعاريف والقواعد . ومن قبيل إلقاء الغايات في البدايات ما تسمعه من الأساتذة في بعض المكاتب المصرية . تسمعون يعرفون الأرض لتلاميذ السنة الأولى بأنها « كوكب دوار يدور حول نفسه وحول الشمس » . ومن إلقاء الغايات في البدايات أن يبتدىء المعلم مع تلاميذه دروس النحو بإعراب البسملة وذكر ما فيها من وجوه الإعراب المختلفة . إن إلقاء الغايات في البدايات سبب من الأسباب التي تبغض العلم إلى المتعلمين ، وتدعوهم إلى الانحراف عنه ، وكثيراً ما يكون ذلك داعية إلى قتل ذكائهم وإضعاف نشاطهم الفكري .

(٤) ألا يطوّل على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها ، لأن ذلك ذريعة النسيان وانقطاع مسائل العلم بعضها عن بعض . وأرى أن هذا يخالف الطرق الرشيدة في التربية الحديثة ، لأن النفس تسأم العمل الواحد المستمر وتميل إلى التنوع والتغيير ، ولأن فترات الراحة التي يأتي بها تفريق المجالس تفيد في تسجيل الدروس القديمة في المخ كما هو مقرر في علم النفس

(٥) ألا يُخْطَط على المتعلم علماً معاً فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما في ذلك من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهيم الآخر ، فيستغلطان معاً ويعود منهما بالخيبة . أما إذا تفرغ الفكر لدروس علم واحد فر بما كان ذلك أجدر بتحصيله . وأرى أن هذا يخالف طرق التربية السديدة ، فإن التنوع والتغيير في الدروس يجددان من نشاط المتعلمين ويزيدان في إقبالهم على التعليم ، أما الاستمرار في علم واحد فمدعاة إلى السأم والتعب الفكري

(٦) البداءة في التعليم بكتاب الله يقرؤه التلميذ ويحفظه ثم ينتقل منه إلى غيره من العلوم والفنون ، (إلا أن بعضاً من المربين يرى البداءة بتعليم علوم العربية والانتقال منها إلى الحساب ومنه إلى القرآن الكريم ، وقد ارتضى ابن خلدون هذا الرأي كما مر عليك تفصيله

(٧) أَلَّا يُوسَّعَ الْكَلَامُ فِي الْعُلُومِ الْآلِيَةِ بِخِلَافِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعُلُومَ الْمُتَعَارِفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِمْرَانِ عَلَى صَنَفَيْنِ ، عُلُومَ مَقْصُودَةٍ بِالذَّاتِ كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ ، وَعُلُومَ آلِيَةٍ هِيَ وَسَائِلُ لِهَذِهِ الْعُلُومِ كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْحِسَابِ وَغَيْرِهَا ، فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِيعِ الْكَلَامِ فِيهَا وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مِلْكَتِهِ وَإِبْضَاحًا لِمَعَانِيهَا الْمَقْصُودَةِ ، وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لْغَيْرِهَا ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ فِيهَا عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي يُسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ الْأَوَّلَى لَا غَيْرَ ، إِذْ أَنْ تَوْسِيعَ الْكَلَامِ فِيهَا قَدْ يَعْوِقُ عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ لَطَوِيلَ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ ، وَالْعَمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْوَسَائِلِ وَالْغَايَاتِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْمَطْوَلَةِ (٨) أَلَّا يُطَالِبَ الْمَعْلَمُونَ تَلَامِيذَهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا وَقَعَ فِي الْعُلُومِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَصْطِلَاحَاتِ وَتَعَدُّدِ الْمَذَاهِبِ ، وَأَلَّا يَكْلِفُوهُمْ اسْتِنْقَاءَ الْمُؤَلَّفَاتِ وَاسْتِيعَابَ مَا كَتَبَ فِي كُلِّ عِلْمٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْوِقُهُمْ عَنِ التَّحْصِيلِ . قَالَ ابْنُ خَلْدُونِ فِي ذَلِكَ « اعْلَمْ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَّ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ كَثْرَةُ التَّأْلِيفِ وَاخْتِلَافُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مَطَالِبَةُ الْمُتَعَلِّمِ بِاسْتِحْضَارِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَيَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمِرَاعَاةِ طَرِقِهَا ، وَلَا يَنفِي عَمْرُهُ بِمَا كَتَبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا ، فَيَقَعُ الْقُصُورُ وَلَا بَدَّ دُونَ رَتْبَةِ التَّحْصِيلِ » .^(١)

(٩) أَنْ يَتَجَنَّبَ الْمَعْلَمُونَ تَصْنِيفَ الْمُتُونِ الْمُخْتَصِرَةِ وَتَكْلِيفَ تَلَامِيذِهِمْ تَتَبِعَ أَلْفَاظَ الْإِخْتِصَارِ وَاسْتِخْرَاجِ الْمَسَائِلِ مِنْ بَيْنِهَا ، فَإِنَّ أَلْفَاظَ الْمُخْتَصِرَاتِ دَائِمًا عَوِيصَةٌ مُسْتَغْلِقَةٌ يَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا قِسْطُ صَالِحٍ مِنَ الْوَقْتِ . وَقَدْ عَقَدَ الْعَلَامَةُ ابْنُ خَلْدُونِ فِصْلًا بَيْنَ فِيهِ أَنَّ كَثْرَةَ الْمُخْتَصِرَاتِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي الْعُلُومِ مَخْلَةٌ بِالتَّعْلِيمِ وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ الْحُجْجَ النَّاهِضَةَ وَقَالَ « قَصْدُ الْمُتَأَخِّرِينَ بِهَذِهِ الْمُخْتَصِرَاتِ تَسْهِيلَ الْحِفْظِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْبًا يَقْطَعُهُمْ عَنِ تَحْصِيلِ الْمِلَكَاتِ » .^(٢)

(١٠) الرِّحَالَةُ إِلَى الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَاسْتِفَادَتِهِ . فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي

(١) رَاجِعْ مَقْدِمَةَ ابْنِ خَلْدُونِ (فَصْلٌ فِي أَنَّ كَثْرَةَ التَّأْلِيفِ فِي الْعُلُومِ عَائِقَةٌ عَنِ التَّحْصِيلِ)

(٢) رَاجِعْ الْمَقْدِمَةَ (فَصْلٌ فِي أَنَّ كَثْرَةَ الْإِخْتِصَارَاتِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي الْعُلُومِ مَخْلَةٌ بِالتَّعْلِيمِ)

تجارب المتعلم ويكسبه معارف وعلومًا قد لا تتاح له لو أقام جميع حياته في بلده .
 (١١) الرحمة بالأطفال وتقويمهم بالقرب والملاينة لا بالشدة والغلظة ، فإن إرهاف
 الحد في التعليم مضر بالمتعلم ومفسد لأخلاقه ، وفي ذلك يقول الإمام ابن خلدون
 «ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم ، سطا به القهر وضيق
 على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث
 خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه» وقال بعد ذلك «ومن أحسن مذاهب التعليم
 ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين ؛ فقال : يا أحمري إن أمير المؤمنين قد دفع
 إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له
 بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّاه الأشعار ، وعلمه
 السنة ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه
 بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ،
 ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ،
 ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ،
 فإن أباهما فعليكَ بالشدة والغلظة . (١)

(١٢) أن يُعتمد في تهذيب الأحداث على القدوة الحسنة ، فإن الأطفال يأخذون
 بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والإرشاد . (ومن أحسن ما رأيته في هذا
 الموضوع ما كتب به عمرو بن عتبة إلى معلم ولده قال : «ليكن أول إصلاحك لولدي
 إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت والتبجح
 عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ولا تُملِّم فيه فيكرهوه ولا تتركهم فيه فيهجرهوه .
 رَوِّهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يحكموه
 فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء وجنبهم محادثة
 النساء ، ولا تتكل على عذر مني لك ، فقد اتكلت على كفاية منك » .